مفهوم النسق الفلسفي لدى جيل دولوز*

د.حموم لخضر*

ملخص

لقد وجه دولوز – باعتباره أحد فلاسفة الاختلاف – نقدا للصورة التقليدية للفكر في كتابه الاختلاف و التكرار ، و ذلك من خلال نقد المسلمات التي تنهض عليها هذه الصورة ، لقد سعى للبحث عن صورة جديدة للفكر ، تعتمد على الاختلاف الذي يخلص الفكر الفلسفي من كل انغلاق منهجي و نسقي و مذهبي ، لصالح المتعدد و الفريد ،الذري ...إلخ ،صورة جديدة تعتمد على فلسفة التجربة المتعالية و الجذمور و الترحال ؛ و هو ما فتح أمامه أفاقا لتجريب فلسفته الخاصة بالمحايثة و التعدد في ميادين جديدة مَثلت الخارج بالنسبة له ، و إبداع و حرث المفهوم في مناطق بكر . هذه المسالك هي التي رسمت إحداثيات الصورة الجديدة للفكر لدى دولوز في منهجه الجديد في الفلسفة ،و هذا ما أحدث تغييرا في طبيعة النسق الفلسفي و هو ما يسميه فلسفة النسق المفتوح و النسق المتعدد.

مقدمة :

إن الفلسفة مع تيار الاختلاف ستبرح مكانها المعهود لتنزل إلى السجون و المستشفيات و ساحات المحاكم و قاعات العرض السينمائي و دور المسرح و معارض الرسم، ومصحات التحليل النفسي. إذ لم تعد الفلسفة المعاصرة رؤية موحدة و نسقية للوجود ، تُنظِر له و لمجالات المعرفة و الأخلاق و السياسة، حيث لم يبحث جيل الاختلاف في الفلسفة عن معنى الجوهر والماهية، الذات و الحرية و الوجود، بل تَتبعوا بالحفر و التنقيب و التفكيك نمط تشكل العقلانيات حتى أكثرها إيغالا في التجريد، و لم يعد مدار بحثها هو الماورئيات و المقولات و المواضيع الميتافيزيقية . يقول فوكو عن المعنى الجديد للفلسفة: " لقد مرت تلك الحقبة الكبرى من الفلسفة المعاصرة ، حقبة سارتر و ميرلوبونتي ، حيث كان على نص فلسفي ، أو نظري ما أن يعطيك في النهاية، معنى الحياة و الموت، و معنى الحياة الحسية، و يقول لك هل الله موجود أم لا؟ ، و ما تكونه الحرية، لقد تكون لدينا انطباع بأنه لم يعد من الممكن ترويج مثل هذه الفلسفة ، و التي قد تكون في حالة تشتت إن لم تكن قد تبخرت فعلا ، و بأن ثمة عملا

---

*ولد جيل دولوز (Gilles Deleuze) في 18 جانفي 1925 بباريس،. في 1969 قدم الأطروحة الأساسية للدكتوراه بعنوان: الاختلاف والتكرار (Différence et répétition)، تحت إشراف موريس ده كونديلاك **(Maurice de Gandillac)**؛ والأطروحة الثانوية التي أشرف عليها فردناند ألكييه ، في موضوع: سبينوزا ومسألة التعبير **(et le problème de Spinoza l'expression)**.في 1969 كان اللقاء مع فيليكس غوتاري **(Félix Guattari)** حيث شكلا ثنائيا أنتاجا معا أربعة كتب و انخرطا في مشروع عمل مشترك.في 1969أصبح أستاذا بجامعة باريس الثامنة **(l'Université Paris-VIII,)** و تقاعد عن العمل في 1987 و في .5 نوفمبر 1995 انتحر بعد معاناته مع المرض .

* شعبة الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم

نظريا يغلب عليه بشكل أو بآخر طابع التعدد ، و هكذا فالنظرية و النشاط الفلسفي يظهران في ميادين الأسطورة أو في ميدان تاريخ الديانات أو ميدان التاريخ عامة ...و في هذا النوع من تعدد العمل النظري ، إنما تكتمل في النهاية ، فلسفة لم تجد بعد مفكرها الوحيد و خطابها الموحد "[1].

أي أن الفلسفة لم تعد ذلك النشاط الذي يتبلور في نسق أو مدرسة أو مذهب ، بل هي حصيلة نشاطات مختلفة تتناول مباحث الوجود من خلال ميادين متنوعة و انطلاقا من رؤى متعددة و مختلفة ، حيث في النهاية لا تنصهر في نسق واحد و لا في مدرسة وحيدة ، فالثورات الفكرية و المعرفية التي تطرقنا إليها سابقا ، جعلت من فلسفة الاختلاف نقطة التقاء ابرز التوجهات الفكرية المعاصرة ، و استثمرتها من اجل تخليص الفكر من التناول الموسوعي و الشامل لموضوعاته ، و بالتالي فتحه على الحاضر ، و المتعدد و المختلف ، "فإذا مـا كان ثمة ، على وجه الاحتمال ، نشاط فلسفي اليوم ، وجدت فلسفة لا تكون مجرد نوع من النشاط النظري الداخلي للرياضيات أو اللسانيات ، أو الاثنولوجيا أو الاقتصاد السياسي ، إذا كان ثمة فلسفة مستقلة ، متحررة من كل هذه الميادين ، أمكننا تعريفها على النحو التالي : بأنها نشاط تشخيصي ، حيث يشخص المرء الحاضر معناه أن يقول ما هو الحاضر ، أن يقول فيما يختلف حاضرنا اختلافا جذريا عن كل ما عداه ، أي عن ماضينا ، و لا ربما كانت هذه المهمة الموكلة للفلسفة الآن" [2]، لن يتأت ذلك حسب فلسفة الاختلاف إلا بفتح النشاط الفلسفي بصفة عامة على ميادين ظلت بعيدةً عن الاستكناه الفلسفي، بل فتح الفلسفة على الحياة و ممارساتها .

الفلسفة كنشاط تشخيصي ، معناه تشخيص الحاضر و الكشف عن مسار تكوّنه ، من خلال مساءلة الفكر الفلسفي ، و تشتيت أنساقه و فتحه على أسئلة جديدة ، و مناطق كانت مرذولةَ و مرفوضةَ ، عمل الفكر الفلسفي هو أشكلة كل ما هو مألوف و بديهي ، ذلك أنه ،" ليس عمل الفكر أن يدين الشر الذي قد يسكن كل ما هو موجود ، بل أن يستشعر الخطر الذي يكمن في كل ما هو مألوف ، و أن يجعل كل ما هو راسخ موضع إشكال . تفاؤل الفكر ، إذا أردنا أن نستعمل هذه الكلمة ، هو أن يعرف أنه لا وجود للعصر الذهبي "[3].

لقد وجه دولوز – باعتباره أحد فلاسفة الاختلاف – نقدا للصورة التقليدية للفكر في كتابه الاختلاف و التكرار ، و ذلك من خلال نقد المسلمات التي تنهض عليها هذه الصورة ؛ أي التمثل و فلسفة الذات ،هذه الصورة الكلاسيكية الدوغمائية للفكر هي صورة أخلاقية حسب دولوز ،لأن الأخلاق هي ما يجعلنا

---

[1]– فوكو ميشال : تشخيص الحاضر ، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي ، محمد سبيلا ، ضمن دفاتر فلسفية : التفكير الفلسفي ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، المغرب ،ط 1 ، 1991.، ص ص : 80-81.

[2]– المرجع سابق ص. 81.

[3]– فوكو ميشال : حول نسابية الاخلاق ، ضمن ميشال فوكو ، مسيرة فلسفية، لمحة عن العمل الجاري ، مقابلة مع هيوبرت دريفوس و بول رينيو ، ضمن ميشال فوكو ، مسيرة فلسفية ، ترجمة جورج أبي صالح ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، (د ط) ، (د ت) مرجع سابق ، ص.204.

نتصور أن للفكر طبيعة طيبة ، و أن المفكر يمتلك إرادة طيبة .و هي صورة وحيدة تؤلف المفترض المسبق للفلسفة عامة .لذا دولوز عمل على قلب مسلماتها لتحرير الفكر من المنغلق و من الشمولي و الكلي ،ومن النموذج و المثال و المتماثل و الوحدة و الأساس ، ليفتحه على اللافلسفي ، و الهامشي و المختلف . لقد سعى للبحث عن صورة جديدة للفكر ، تعتمد على الاختلاف الذي يخلص الفكر الفلسفي من كل انغلاق منهجي و نسقي و مذهبي ، يخلصه من الواحد لصالح المتعدد و الفريد ،الذري ...إلخ

ما هي الصورة الجديدة للفكر التي عمل جيل دولوز على إرسائها ؟.

سنعمل ا على تحديد معالم و خصائص هذه الصورة ، اعتمادا على فلسفة التجربة المتعالية و فلسفة التعدد و الجذمور لديه ، باعتبار الفلسفة الثانية جاءت لتعمق و تكمل الأولى ، خاصة بعد لقائه بفيلكس غوتاري ، هذا اللقاء فتح أمامه أفاقا لتجريب فلسفته الخاصة بالمحايثة و التجريبية المتعالية في ميادين جديدة مَثلت الخارج بالنسبة له ، فكان فكر الترحال و الجذمور هو ما مكنه من اكتشاف المتعدد و إبداع و حرث المفهوم في مناطق بكر ، فمع " ضد أوديب يحطم دولوز و غوتاري الحدود و يغيران العلامات و يتخطيان الخطوط ، و يُدخلان الفلسفة في مسالك لم تعبرها من قبل"[1].هذه المسالك هي التي رسمت إحداثيات الصورة الجديدة للفكر لدى دولوز في منهجه الجديد في الفلسفة أي التجربة المتعالية ، و الفلسفة كجذمور و ترحال ، و هي كلها ضمن ما يسميه فلسفة النسق المفتوح و النسق المتعدد.

التجربة المتعالية:

مسطح المحايثة هو مدار الفلسفة الجديدة التي عمل دولوز على إرسائها ، ذلك أن مسطح المحايثة "يمنح للأحداث افتراضية و واقعا كاملا ، من خلال ربط الحدث مع لوازمه أي الحقل المتعالي و مسطح المحايثة و حياة الفرديات " [2] . تلك الفلسفة الجديدة تخط مسارا و منهجا جديدا ، سماه دولوز "التجريبية المتعالية" ، حيث مارس تلك الفلسفة في كتابه الاختلاف و التكرار ، و منطق المعنى ، فمع" منطق المعنى يدخل دولوز في مرحلة مهمة ، حيث تظهر التجريبية لديه من خلال خطوط تجاربه الفكرية الخاصة "[3].ذلك أن الفلسفة لم تكن لديه نشاطا موسوعيا قابلا للتعميم و الشمولية ، أو للانصهار في مدرسة أو نسق معين ، بل هي سؤال متردد دوما يجعل الفلسفة في احتكاك مع اللافلسفي .إن التجريبية المتعالية في نظر دولوز هي بمثابة " إعادة النظر في تاريخانية المفهمة . و هي لذلك

1- Ewald français : La schizo-analyse, in magazine littéraire, N° 257, septembre 1988. P.52.

2- Rue Gilles Deleuze : L'immanence : une vie , revu Descartes, Ed. P.U.F. 1ere édition, Paris, 1998.,PP : 06-07.

3- Imbert Claude : Empirisme, Ligne de Fuite, in magazine littéraire ,N° 406.Février 2002. P.32.

تؤسس لمعمارية منطق آخر ، يرُاجع باستمرار كل تحديداته التقليدية على ضوء تقاطعات الصيرورة مع حادثات الفكر و العلم و الفن و التاريخ "[1].

يُمكِّن مفهوم التجريبية المتعالية حسب دولوز من تجاوز التعارض بين المثالي و الواقعي ، المجرد و التجريبي ،الذي كانت تُقيمه صورة الفكر التقليدية ، فالتجريبية المتعالية تتجاوز التجربة المباشرة لتصل إلى اللامتناهي في التجربة ،أي المتعالي فيها، ذلك ما يعنيه دولوز بمسطح المحايثة ، الذي لا يقبل كل ما هو مفارق ، متعالي ، متراتب ، فدولوز يُرجع الفضل إلى برغسون ،الذي انتبه إلى أن الميتافيزيقا ظلت تؤسس للوجود من خلال التشابه و التمثيل و تراتبية الوجود ،حيث تراعي الاختلافات في الدرجة دون الاختلافات في الطبيعة ، إذ يجب"تجاوز التجربة نحو شروطه. لكن هذه الشروط ليست عامة و لا مجردة ، ليست أوسع من المشروط ، إنها شروط التجربة الواقعية "[2].

لكن ذلك لا يعنى تجاوز التجربة نحو المفاهيم ، لأن المفاهيم ستُبقينا ضمن حدود الشروط الممكنة كما هي عند كانط ، بل التجربة الواقعية بكل خصوصياتها و تمفصلاتها التي تتعلق بهذه الخصوصيات وَفْقا للاختلافات في الطبيعة ، و تكون بذلك التجريبية المتعالية " قادرة على طرح المشكلات ، و على تجاوز التجربة في اتجاه شروطها الملموسة . و في تلاقيها ، و في تقاطعها مع الواقع الذي تقوم به ، و على ربط الشرط بالمشروط ، بحيث لا تعود هناك أي مسافة "[3].أي البحث عن الخطوط المتباعدة و الاختلافات في الطبيعة التي تقبع في ما وراء (منعطف التجربة) حسب التعبير البرغسوني .ثم العثور مجددا على نقطة التقاء هذه الخطوط .فبرغسون حسب دولوز هو الذي يدعو إلى فتح الفلسفة على اللاإنساني ، فتجاوز الشرط الإنساني ، هو معنى الفلسفة ، لأن شرطنا يحكم علينا بأن نحيا بين التجارب غير المحددة جيدا .فالتجريبية المتعالية ، " هي تجريبية لأنها ملتصقة دائما بالمحايثة . و متعالية لأنها ، و على الرغم من محايثتها،تنفتح على اللامتناهي ، على السديم (chaos)... إن التجريبية المتعالية في تحديد دولوز هي إعادة النظر في تاريخية المفهمة ، أي في الإطار الذي يتم فيه نحت البناء المفاهيمي ، بناء يؤسس لمنطق جديد هو منطق الاختلاف "[4].

التجربة المتعالية هي شرط التجربة الواقعية التي تعمل على ربط الفيلسوف بالراهن ، حتى لا تبقى المفاهيم الفلسفية مخلوقات من طبيعة فضائية .ذلك أن الفلسفة يجب أن تكون راهنة ، حيث لا تبقى في مستوى البحث عن الحقائق و تحليلها ،و أن لا تبقى مرتبطة بالقضايا و المقولات الميتافيزيقية ، بل يجب

---

[1]– صفدي مطاع : الفلسفة إبداع المفاهيم ، تصدير الترجمة العربية لكتاب : جيل دولوز ، فليكس غوتاري :ما هي الفلسفة، ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، لبنان، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب، ط 1. 1997.، ص.19.

[2]– Gilles Deleuze :Le Bergsonisme ;Ed. Quadrige– P.U.F, 2004, P.17.

[3]–Ibid, P.23

[4]– مهيبل عمر: من النسق إلى الذات ، قراءات في الفكر الغربي المعاصر ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 1 ، 2001 ، ص ص : 182–186.

ممارسة الفلسفة ، كتشخيص للحاضر ، أي"ما هي وضعيتنا الراهنة ؟ و ما هو المجال الحالي للتجارب الممكنة"[1] ، الفلسفة كممارسة تعكس جليا نمط الصيرورة و الارتحال و التفكير بنمط آخر ، حتى تتجاوز الفلسفة المهمة الكلاسيكية التي وسمتها منذ قرون ، تلك المهمة المتعلقة بالبحث عن القيم الشمولية و البنيات الصورية ، و الذات المؤسسة المفكرة، فالتجربة المتعالية كمنهج جديد لدى دولوز " تقوم باكتشاف المتعدد ، و تسمح بممارسة الفكر كإبداع للمفاهيم" [2]، من خلال صياغة الإشكاليات الآنية للحدث ، قصد الكشف عن معناه و قيمته ، بل و تفرده الفلسفي .

الجذمور :

لقد تغيرت لغة دولوز و مفاهيمه منذ لقائه بفليكس غوتاري ، حيث طبعتها مفردات و مصطلحات تعود إلى ميادين الجغرافيا و الزيولوجيا ،السفر و الترحال ،أي الاهتمام بالمحور الأفقي للفكر ، عوضا عن المحور العمودي الذي يحيل إلى التاريخ ، و التراتبية و الهرمية التي ظلت تطبع الفكر التقليدي . مع أن هذا الاهتمام بالشكل الأفقي للفكر ظل حاضرا منذ البداية في أعمال جيل دولوز كما يلاحظ ذلك (جون ليشته) [3]، أي أن دولوز يقرأ كافة الفلاسفة و المفكرين الذين كتب عنهم قراءة أفقية ، و ليست قراءة تاريخية تطورية ، فالتعبير لدى سبينوزا لا يحيل إلى الماهية ، و الأخلاق لديه ليست مجموعة مثل يسعى المرء لكي يتحلى بها ، التعبير هو طريقة في الوجود و الكينونة و الفعل في العالم ، و الأخلاق أخلاق الفرح التي تدفع بقوة للقيام بالعمل . أما بالنسبة لبروست فالعلامات ليست وسائل لتمثيل الواقع بل كيانات تعلمنا شيئا ما "إن البحث عن الزمن الضائع هو في الواقع بحث عن الحقيقة. و نسميه الزمن الضائع لأن للحقيقة علاقة جوهرية بالزمن. فالحقيقة هي ما يتم البحث عنها سواء في الحب والطبيعة، أو الفن، و ليس اللذة فقط" [4] و كذلك الطّية (Le Pli) لدى لايبنتز فهي طريقة جديدة في تكوين الأشكال المنفصلة ، أي المونودات عن طريق الطي و الثني .إن فلسفة لايبنتز بالنسبة لدولوز هي " أساسا نظرية عامة للتعددية ، تعددية النظم و تعددية الطرق "[5].أما في منطق المعنى فقد تناوله دولوز في شكل سلاسل و ليس فصولا ، سلاسل متكاثرة ، التكاثر كإستراتيجية لهدم النظام . و في ضد أوديب كان الفصام ضد عقدة أوديب ، حيث إن هذه الأخيرة تؤكد في نظر دولوز على هيمنة الفكر الهرمي و الشبيه بالشجرة من خلال فكرة الحدث الأصلي و الصدمة ، الرغبة كنقصان

---

[1] – فوكو ميشال : كانط و الثورة ، ترجمة يوسف الصديق ، مجلة الكرمل ، العدد 13 ، 1989 ، ص .71.

[2]– Gilles Deleuze : Deux Régimes de Fous, Textes et Entretiens 1975-1995.éditions préparée par David Lapoujade . éditions de Minuit, Paris ,2003,P. 339

[3] – جون ليشته : خمسون مفكرا أساسيا معاصرا ، من البنيوية إلى ما بعد الحداثة ، ترجمة فاتن البستاني ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ط 1 . 2008. ، ص ص : 217-218.

[4] – Gilles Deleuze : Proust et Les Signes , Ed. Quadrige- P.U.F, 3 è me éditions, Paris, 2006.,P.23.

[5] – التريكي فتحي ، التريكي رشيدة : فلسفة الحداثة ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، لبنان ، 1992.ص .77.

، و المبدأ الرمزي الأبوي كأصل و هوية ، و يقابله دولوز بالآلات الراغبة و الجسم بدون أعضاء ، الرغبة إنتاح و دفق و خطوط هروب و ترحال ، و الجسم بدون أعضاء ، هو جسم دائم التشكيل و التكوين كالجذمور ، " فالفلسفة إنشاء وبناء بقدر ما هي تفكير، وهذه الإنشائية تأخذ اليوم شكل امتداد ومحايثة أفقية لقضايا الواقع، امتداد جذموري Rhizomatique يفرض على الفكر أن يعيد النظر في مفاهيمه كل لحظة."[1] .

نلاحظ ذلك أيضا ،في كتابه مع فليكس غوتاري في ما هي الفلسفة ؟ حيث اختارا التعبير عن الفلسفة باستعمال لغة غير مباشرة هي لغة الاستعارة المكانية ، : المسافة ، الحجم الشكل ، الامتداد ، الكثافة ، الترابطات . و حتى العلاقات بين المفاهيم يطغى عليها البعد المكاني كالجسور و المعابر ، و المحايثة و المسطحات. فلغة الجغرافيا لدى دولوز هي ضد التاريخ، ضد التصور العمودي للفكر و الوجود ، بل هي إثبات للصيرورة ، " فالصيرورة تعبير واقعي يقوم بواسطته دولوز باقحام الحياة في الفلسفة و الفن ، بقواها الشديدة و بحركيتها المتواصلة .فقد حرر الفكر من التمركز العضوي و أصبح يعمل من خلال محاور و اتجاهات وحركات و تغيير الأمكنة و الانتقال باستقلال كامل عن هيمنة فكرة التمركز"[2].لقد ظل الفكر الفلسفي الكلاسيكي يفترض وجود وحدة أصلية و ينطلق منها ، إذ تصير هذه الأخيرة ثنائية يظل العالم يرزح تحت قسمتها الأولية و بالتالي يظل يفتقد المتعدد الحقيقي الذي يشكل الفكر و الوجود معا . إن الفكر الكلاسيكي حسب دولوز لم يفهم قط المتعدد ، بل ظل ينطلق من " وحدة رئيسية قوية و مفترضة ليصل إلى الاثنين وِفْق منهج ميتافيزيقي "[3].

فحسب دولوز و غوتاري هناك نوعان من الكتاب ، أو من طرائق النظر إلى العالم و الأشياء ، الطريقة الأولى :هي الكتاب – الجذر و هي الطريقة الكلاسيكية ، حيث الشجرة هي صورة العالم أو بالأحرى الجذر هو صورة الشجرة ، حيث أن شجرة العالم " داخلية عضوية ، جميلة ، ذاتية و دالة ، و يحاكي الكتاب العالم مثلما يحاكي الفن الطبيعة . فقانون الكتاب هو قانون التفكير ، الواحد يصير إثنين (...) فالمنطق الثنائي هو الواقعة الروحية للشجرة –الجذر"([4]) .

الطريقة الثانية هي طريقة الجذمور ، أي الطريقة التي يقترحها دولوز و غوتاري ، فمن وجهة نظرهما أن العالم قد فقد محوره ، حيث لم تعد الذات قادرة على القيام بالتقسيم الثنائي .إنها صورة جديدة

---

[1]– مصطفى لعريصة : دولوز، قارئا لفوكو ، مجلة مدارات فلسفية العدد 2 ، الجمعية الفلسفية المغربية ، الرباط.الموقع الالكتروني للمجلة ، يوم 2011/01/15.

philosophiemaroc.org/madarat_02/madarat02_07.ht

[2]– التريكي فتحي : فلسفة الحياة اليومية ، الدار المتوسطية للنشر ، بيروت ، تونس ط 1 .2009. ص 48

[3]– Gilles Deleuze .Félix Guattari : Mille Plateaux, capitalisme et schizophrénie 2, éditions de Minuit, Paris, 1980,P 11 .

[4]– Ibid. P. 11 .

للفكر تعمل على التخلص من الوحدة الرئيسية المفترضة للفكر و الوجود ، و تدعو لفهم المتعدد " فالمتعدد يقتضي الممارسة ، ليس عبر إضافة بعد اسمي ، بل على العكس من خلال العمل ببساطة و اعتدال داخل الأبعاد المتوفرة ، حتى يصير الواحد دوما (n-1) من مكوّنات المتعدد و محذوفا منه في نفس الوقت ، فالواحد يحذف من المتعدد الذي يتعين تشكيله و كتابته بصيغة (n-1)، نسمي هذا النظام جذمورا ، الذي هو بمثابة ساق نباتية تحت أرضية ، متميزة تماما عن الجذور و الأشجار "[1] .

تلك هي صورة الجديدة للفكر التي سعى دولوز إلى بنائها ، هي صورة جذمورية ، أي الجذمور في مقابل الشجرة ، و الجذير في مقابل الجذر ، الرؤية الأفقية للفكر عوضا عن الرؤية العمودية ،الاستناد إلى أفق الجغرافيا للتخلص من الرؤية التاريخية التطورية و الغائية و أسر الجدل ،إنه أفق الترحال و السفر و التيه عند الحواشي و المهمش و المقصي ، صورة جديدة تعمل من خلال التجاور و الشبكة و الأفقية من أجل تجاوز النظام الهرمي و التراتبي و المتعالي للفكر التقليدي .

خصائص الجذمور: يتميز الجذمور حسب دولوز و غوتاري بعدة خصائص تُميّز في نفس الوقت صورة الجديدة للفكر ، و هي خصائص تتميز كذلك عن مبادئ الميتافيزيقا التقليدية ،كمبدأ الهوية و الاتصال و الذاتية و التأسيس ، و نذكر منها الخصائص التالية :

أ- مبدأ الترابط و التنافر : يتميز الجذمور بالتخلي عن فكرة الأصل و المبدأ ، حيث يمُكن الانتقال من أي نقطة فيه إلى نقطة أخرى دون التقيد بأي نسق و ترتيب محدد سلفا، و كذلك يمكن لأي نقطة فيه يمكن لها أن تتواصل و ترتبط مع أي نقطة أخرى ، بل يجب عليها فعل ذلك ، و هذا عكس منطق الشجرة ، منطق الفكر التقليدي الميتافيزيقي ، الذي يفرض نقطة الانطلاق من المبدأ المتعالي وِفْق نظام و تراتب هرمي في الفكر و الوجود معا، هذا ما تحدده مقولات الفكر الميتافيزيقي و الأنساق و المذاهب الكبرى في الفلسفة ، حيث الانطلاق من رؤية معينة للوجود تُسحب في النهاية على كل مباحث الوجود من معرفة و أخلاق ، و عليه يمكن الجذمور و انطلاقا من خاصية التجاور و الأفقية التي يتوفر عليها من تناول الفكر كمحايثة و ليس كمفارقة و تعالٍ .

ب -مبدأ التعددية : إن التعددية نفسها جذمورية ،حيث لا تعود للواحد ، و لا توجد في مقابل الواحد ، بل تفقد كل علاقة لها مع الواحد ، و الذات ، حيث تفضح أشباه التعدديات الشجرية ،إن التعددية لا ذات و لا موضوع لها ، بل هي ترتيب من الأبعاد و الأحجام و التحديدات ،هي تنسيق(Agencement) ، لأنه لا وجود للنقاط و المواقع داخل الجذمور كما هو الحال داخل بنية الشجرة أو الجذر ، لا وجود إلا للخطوط .

ج- مبدأ القطيعة غير الدالة : إن خاصية الشبكة و التجاور و الترابط لدى الجذمور توفر له الاستمرار عند كل انقطاع أو انكسار في أي نقطة ما منه . فهو ضد القطائع الدالة ، يشبه في ذلك خط

---

[1]- Ibid 1.3.

سير النمل الذي لا ينتهي لأنه ما يلبث أن يتشكل من جديد عند كل انقطاع و انكسار، مشكِّلاً مسارات جديدة وَفْقًا لخطوط جديدة و لتوجّهات مستجدة ، فالخطوط التجزيئية و خطوط الهروب لا تنفك من التبادل فيما بينها ، و هو ما يشكل نفيا لكل نزعة ثنائية ، أو تقسيم ثنائي ، فالكتاب الكلاسيكي أي الكتاب – الجذر يظل يعتمد التقليد و المحاكاة سواء مع الطبيعة أو مع الفن، و يبقي التقليد رهين التقسيم الثنائي، أما الكتاب كجذمور فهو يعتمد على حركات الترحال و حركات إعادة التموطن (Déterritorialisation et Réterritorialisation) النسبية و المتحفزة دوما و المتشابكة ، من خلال البحث عن ما هو ذري و جزئي ، و يتعين متابعة الجذمور.

د– إن فكر الجذمور ضد كل نموذج بنائي أو تكويني ، أو نموذج تمثيلي كما هو الحال مع منطق الشجرة–الجذر ، الذي يدور حول نفسه وَفْقَ مراحل متتالية ، ففكر الشجرة – الجذر يتلخص في منطق الاستشفاف و التوالد ، سواء تعلق الأمر باللسانيات أو التحليل النفسي ، فموضوعه هو اللاشعور المعروض وفق رموز مشفرة (surcodage) و موزع على محور توليدي و داخل بنية عميقة .

3–الترحال :

لكن دولوز يتساءل إن كان ما يقوم به مع منطق الجذمور ليس إلا ترميما لمنطق الثنائية ، ذلك من خلال إرساء تقابل بين الخريطة و الورق الشفاف ؟ ، و هل يمكن تجنب نقل الخريطة ، و تقاطع الجذمور مع الجذور و الاندماج معها أحيانا ؟ ، أو ليست التعددية هي طبقاتها ذاتها التي تتجذر فيها الوحدة و الشمولية و آليات السلطة و الدال و الذاتية ؟ هل يمكن لخطوط الهروب أن لا تعيد إنتاج ما كانت ترمي إلى تفكيكه و قلبه بفعل تباينها ؟.

يجيب دولوز بأن المسألة هي مسألة منهج ، ذلك أن منطق الجذمور هو ضد التقليد و الاستنساخ ، استنساخ نموذج جاهز و قائم سلفا ، فهو يتوفر على خطوط الهروب التي تسمح بتفجير الطبقات و قطع الجذور و إقامة ترابطات جديدة . ففي قلب الشجرة يُمكن أن يتشكل جذمورٌ جديدٌ ، و قد يساهم عنصر ذرّي و جزئي داخل الشجرة أو الجذر في إنتاج جذمور ، و يعاد النظر كذلك في هيمنة الدال ،ذلك أنه – خسي دولوز – قد تعبنا من الأشجار و علينا ألا نثق فيها و لا في الجذور ، لأننا عانينا منها كثيرا . فكل ثقافة شجرية تتأسس انطلاقا منها ، بدءا من البيولوجيا و انتهاءً باللسانيات. توحي الشجرة و الجذر بصورة بئيسة إلى الفكر الذي لا يتوقف عن محاكاة المتعدد انطلاقا من وحدة عليا مفترضة ، و في الأخير نحن لا نبرح القسمة الثنائية التي تمُدنا بتعدديات مفتعلة. و يلاحظ دولوز و غوتاري أنه حتى نظام المعلومات و الآلات الالكترونية ، ما زال يحتفظ بأقدم نمط للتفكير و ذلك من خلال الاعتماد على سلطة الذاكرة و جهاز مركزي يتحكم في جميع مفاصلها ، و يرسم لها الحدود بشكل قبلي .

لذا ، ينبغي حسب دولوز و غوتاري العمل بالأنظمة غير الممركزة ، و الاتصالات الشبكية ، و ذلك ضد الأنظمة الممركزة و الهرمية و التراتبية ، و اللامركزية تعني الاتصال وفق حالة معينة و ليس

سلفا ، أي بشكل محلي و ليس شمولياً، ذري و ليس كلياً كتلياً ، باستقلال عن كل مركز، إنه منطق آلة الحرب ، و هنا يتساءل دولوز و غوتاري :"هل من الضروري أن يوجد الجنرال كي تتمكن مجموعة من الأفراد من إطلاق النار في نفس الوقت ؟ .إن الحل من دون جنرال يوجد بالنسبة لتعددية غير ممركزة ، إن مثل هذه التعددية كتنسيق أو مجتمع محليين ترفض كل كائن كلي جامع و موحد ، و في هذه الحالة ستكون (N) هي دوما (N-1) " .[1] إنه منطق حرب العصابات و جذمور الحرب الذي يسمح بوجود تعددية في حالة تسارع دائم . ففلسفة دولوز هي فلسفة ترحال و بدواة ،لذلك يسمى بالفيلسوف البدوي أو الرحال [2] .

إن الترحال الذي يدعو دولوز أن يكون التفكير عليه ، هو الترحال إلى مناطق ظلت بعيدة عن الاستكناه الفلسفي و التناول الفكري ، لذلك فدولوز الذي يدعو إلى جعل الفكر قوة رحالة لا يعني ذلك بالضرورة أن نتحرك ، بل يعني السعي إلى زعزعة نموذج جهاز الدولة القائم و المرتبط بالفكر ، نموذج الفكر السائد الذي يمنع الفكر من التفكير في اللامفكر . ينبغي حسب دولوز منح الفكر سرعة مطلقة ، و آلة حربية ، وينبغي الاهتمام بالجغرافيا عوضا عن التاريخ ، الطرق و الممرات التي تشق عبر السهب و الصحاري ، الصيرورة و ليس التقدم ، المآل (Devenir) و ليس الغاية ، لذلك يعتبر دولوز ابيقور و سبينوزا و نيتشه بمثابة مفكرين رُحَل.

إن للرحل تنظيما أصيلا ،و علاقات مع النساء و الحيوانات و النباتات و المعادن مختلفة عن النظام الذي تتبناه الدولة ، حيث يعيش الرحل دائما في الوسط ، مثلما ينمو العشب في وسط السهب ، بين الغابات و بين الدول و الإمبراطوريات ، لذلك فإن السهب و العشب و الرحل شيء واحد . ليس للرحل ماض و لا مستقبل ، لديهم صيرورات فقط . ليس لهم تاريخ بل جغرافيا ، إنهم يحلون كالقدر ، بدون سبب ، و بدون دافع و بدون اعتبار و بدون ذريعة كما يقول نيتشه .

لقد ظل منطق الشجرة–الجذر مهيمنا على ساحة الفكر الغربي طويلا، من علم النباتات إلى البيولوجيا و الفلسفة ، فالغرب يرتبط بعلاقة خاصة مع الغابة و قطع الأشجار و تربية الحيوانات و انتقاء سلالاتها .و في المقابل هناك منطق آخر ،منطق الشرق الذي يرتبط مع السهب و البساتين ، مع الواحة و الصحراء و ليس الغابة و الأشجار ، إنه فكر البدو و الرّحَل ،هو ما يوفر وسطا ملائما لفلسفة المحايثة و ذلك في مقابل فلسفة التعالي لدى الغرب،"فالتعالي هو مرض خاص بالغرب "[3].

بهذا المعنى حسب دولوز و غوتاري، فإن شجرة بوذا (Boudha) تشكل جذمورا ، و كذلك نهر ما (Mao). لكن هذا لا يعني في تصورهما أن الهند هي التي لعبت دور الوسيط بين الشرق و الغرب كما

.[1] – Ibid,P .26–27

[2] –Raymond Bellour :Gilles Deleuze ;Un Philosophe Nomade , in magazine littéraire ,N° 257 .septembre ,1988,P.14.

.280[3] – Gilles Deleuze .Félix Guattari : Mille Plateaux, Op.cit,P

رأى ذلك هودريكور ، بل أمريكا ، ففيها يوجد و يجتمع كل شيء ، الشجرة و القناة ، الجذر و الجذمور ، نرى ذلك من خلال الإبادة الجماعية للهنود و المزارعين و حركة الهجرة الداخلية و الخارجية ، و الرأسمال و السلطة و سياسة الكوطات (النظام الانتخابي في أمريكا قائم على عدد من الممثلين المنتخبين لكل ولاية و ذلك حسب أهميتها الجغرافية و الديموغرافية و الاقتصادية) .

لا يتعلق الأمر بثنائية جديدة كما أسلفنا الذكر و لا بهذه اللحظة التاريخية أو تلك ولا بهاته المقولة أو تلك ، بل يتعلق الأمر بالكتابة ، ذلك أن المشكلة هي مشكلة الكتابة ، حيث يجب أن نتوفر على تعابير غير صحيحة للإشارة إلى أشياء صحيحة ، فالخطأ لا يمكن تلافيه بل هو العبور الصحيح نحو ما يتعين انجازه ، من هنا لا يستعيد دولوز و غوتاري ثنائية لرفض أخرى ، و لا يسعيان إلى إقامة أي نموذج ، بل رفض كل النماذج ،" يجب أن يتوفر كل مرة مصححون للفكر ، يفككون الثنائيات التي لم نرغب في انجازها و التي يتحقق العبور من خلالها .يجب بلوغ الصيغة السحرية التي نبحث عنها جميعا وهي : أن النزعة التعددية (pluralisme) تساوي النزعة الواحدية (monisme)، مرورا بكل النزعات الثنائية (dualismes) المعاندة التي تعتبر عدوا ضروريا و تشكل الأثاث الذي لا نتوقف عن إزاحته "[1]. فدولوز يعتبر الوجود بمثابة الواحد المتعدد.

إن إشكالية الواحد و المتعدد التي ظل الفكر الفلسفي يدور حولها هي بالنسبة لدولوز و غوتاري مطروحة بشكل خاطئ ، و لا معنى لها ، ذلك أن الوجود واحد ، أما رؤية الوجود فهي المختلفة ، و ما يقال عن الوجود هو المختلف ، يظل يختلف عن الوجود ، و هذا الأخير يظل يختلف عن ما يقال عنه ، حيث يسري الاختلاف وراء كل شيء و لا شيء وراءه ، هذا ما استنتجه دولوز من خلال التمييز بين الاختلاف في الدرجة أي الاختلاف في التراتب وهو اختلاف خارجي وعددي آني، هذا من جهة، و الاختلاف الخالص، الحقيقي، أي الاختلاف في الطبيعة من جهة أخرى، و هو اختلاف لا يمكن حصره بالعدد، إنه كثرة افتراضية، لذلك " الاختلاف بين الافتراضي و الراهن هو الاختلاف بين المفاضلة و الاختلافية ، و المنطقة الانطولوجية للافتراضي لا تتميز عن الراهن ، فقد حيكا معا في الحقيقة ، و عدم قابلية الفصل الانطولوجية هو ما يسميه دولوز بالمذهب التجريبي المتعالي "[2].هذا المذهب الجديد في التفكير الفلسفي كان بمثابة ممارسة مغايرة للتفلسف ، ممارسة لا تسعى إلى تشييد نسق فلسفي كما هو الحال مع الأنساق الفلسفية الكبرى في تاريخ الفلسفة ،لأن ذلك لم يعُد ممكنا مع انفتاح النشاط الفلسفي إلى ميادين جديدة ، بل كنسق مفتوح و متعدد .

4-النسق المتعدد: النسق المفتوح :

1- Ibid,P. 31.

2- هيلي باتريك : صور المعرفة . مقدمة لفلسفة العلم المعاصرة ، ترجمة ، نور الدين شيخ عبيد ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، لبنان، ط 1 ، 2005، ص .204.

رغم أن كتاب ألف مسطح لم يحظ بالشهرة و الحفاوة التي حظي بها كتاب ضد أوديب ،فإنه كتاب في غاية الأهمية ، بل هو كتاب تأسيسي لفلسفة دولوز بالرغم أن مسألة التأسيس غير متفق عليها لدى دولوز ، فهو يكمل ما بدأه مع كتبه الأولى :نيتشه و الفلسفة و الاختلاف و التكرار ، ثم منطق المعنى ، صحيح إنه كتاب تطرق إلى ميادين متنوعة مثل التحليل النفسي و الرسم و الفن و العلم ، و الفيزياء و المنطق ،و سياسية ...الخ إلا أنه يظل كتابا في الفلسفة ، و لاشيء غير الفلسفة بالمعنى التقليدي للكلمة ، فمثلما يبدع الرسام نمطا من الخطوط و الألوان رغم وجودها في الطبيعة ، فإن الفيلسوف شخص يبدع المفاهيم ، و هناك أيضا فكر خارج الفلسفة ، هناك مفاهيم كثيرة التي حاول ألف مسطح نحتها ، مثل الجذمور ، الآلة المجردة، خطوط الهروب ، المكان الأملس.

إن فلسفة دولوز هي بمثابة النسق المتعدد أو تعددية التأسيس كما يرى ذلك (فيليب مانع Philippe Mengue) ،"هذا الكتاب (أي ألف مسطح) هو التجسيد الأمثل لنظرية النسق المتعدد. هو كتاب في المنهج الجديد ؛ بمثابة المنهج الجديد لما بعد الحداثة فهو يُقوِّض العلاقة المعهودة القائمة بين الخطاب و الواقع و بين الخطاب و المعنى (...) هو عبارة عن ايبستيمولوجيا جديدة تستجيب لأوضاع المعارف الراهنة "[1] ، حيث يُمكن لسائر العلوم و المعارف المختلفة و حتى المنعزلة و الموغلة في التخصص من التلاقي و التلاقح ،مُشكِلة في النهاية منطقا للتجاور و التحاور فيما بينها ،و هو كتاب يقطع الصلة نهائيا مع أشكال الخطاب الفلسفي التقليدي ، إن " ألف مسطح يُعد بمثابة كتابِ كلاسيكي في الفلسفة ، نجد فيه الانطولوجيا و الفيزياء و المنطق و علم النفس ، الأخلاق و السياسة و غيرها، لكن هذه المواضيع لم تطرح بشكل تطوري زمني ، أو انطلاقا من المؤسِس إلى المؤَسَس ، بل أعطى الأهمية للمكان على الزمان ، أي للخريطة على الشجرة "[2].

و لما سُئل دولوز عن الفرق بين كتابيه ؛ ضد أوديب و ألف مسطح قال : " ضد أوديب كان يعالج ميدانا مألوفا هو اللاشعور ، و اقترحنا استبدال النموذج العائلي المسرحي بنموذج آخر ، أكثر سياسية ، هو المصنع ، الآلات الراغبة ، أما في ألف مسطح فهو أكثر تعقيدا ، لأنه يحاول صنع ميادينه ، التي لم تكن موجودة بشكل مسبق حيث كانت تتبلور ضمن أجزاء الكتاب ، إن ألف مسطح هو تَتِّمَةٌ لضد أوديب ، لكن تتمة في الهواء الطلق "[3].

كتاب ألف مسطح و رغم تنوع موضوعاته و ميادينه ، و تشعبها ، فإنه يبقى كتابا في الفلسفة ، لقد جاء هذا الكتاب في قمة الدعوة إلى تجاوز الفلسفة بل و موتها ، جاء ليعيد الاعتبار للفلسفة ضد

---

[1] – مانع فيليب : جيل دولوز أو نسق المتعدد ، ترجمة عبد العزيز بن عرفة ، مركز الإنماء الحضاري ، دمشق ،بيروت ، ط1 ، 2002 ، ص ص : 71-73

[2] – Op.cit. P.53 Ewald français :, La schizo-analyse, in magazine littéraire,

[3] – Gilles Deleuze : Deux Régimes de Fous ,Op.cit. P .162

منافسيها الجدد على النشاط الفكري و النقدي و إبداع المفهوم، مثل التحليل النفسي و اللسانيات و الإعلاميات . "لم تكن لدينا على أي حال ، مشكلة تتعلق بموت الميتافيزيقا أو بتجاوز الفلسفة : فتلك الأفكار هراءات لا جدوى منها و شاقة .هل نستمر في الحديث الآن عن إفلاس الأنسقة و المذاهب ، بينما كل ما حدث هو أن مفهوم النسق هو الذي تغير "[1].أي لم يعد ذلك المعمار الفلسفي المهيكل و المغلق الذي لا يمكن النظر إلى مباحث الوجود و المعرفة و الأخلاق دون الرجوع الأساس الذي بُنِي عليه و المسلمات التي افترضها ، لقد أصبح النسق الفلسفي يتغير و يتنوع بتغير مفاهيمه، و ينفتح على المجالات المستجدة في ساحة الفكر ،و ذلك دون رؤية مُوَحدة و لا أحكام مسبقة و لا غاية مقصودة .

لكن دولوز يتميز عن فلاسفة الاختلاف الآخرين بأن لديه معمارا فلسفيا مهيكلا ، " رغم ما ذهب إليه يبقى فيلسوفا من الصنف الكلاسيكي ، لأنه ما زال ينظر إلى الأثر الفلسفي على أنه بنيان مٌهيكل"[2] ، حيث يحوي الانطولوجيا و الأخلاق و المعرفة ، فهو بمثابة نسق فلسفي كامل ، لكن النسق يأخذ معه شكلا آخر ، حيث يقول : " أعتقد أن الفلسفة هي نسق ، و لكن لا يجب أن لا يرجع النسق إلى المتطابق و المشابه و المثيل ، فمشكلة تجاوز الفلسفة أو موتها لا تعنيني قط ، أحس أنني فيلسوف كلاسيكي، لكن على النسق أن يكون في اختلاف دائم " [3].

ذلك أن النسق حسب دولوز هو مجموعة من المفاهيم في تغير مستمر نتيجة ارتباطها بالأحداث ،، حيث لم تعد المفاهيم معه " بمثابة مفردات تتعامل بها المبادئ الأولى أو الكليات ، فلا يعني هذا أن المفهوم سيغدو كلية الكليات ، لكنه سيجعل من هذه الكليات عينها مجرد أفاهيم ، تُشابِهُهُ و تتعرض مثله للتغير ، للميلاد و النماء و الفناء "[4]. حيث تبدع على مسطح المحايثة ، و من هنا فهي تختلف عن الكليات و المقولات التي تؤدي بالنسق إلى الانغلاق و الشمولية كما هو الحال في الفلسفة التقليدية . الفلسفة لدى دولوز هي من نوع النسق المفتوح ، حيث تكون المفاهيم نتيجة لأحداث و ليست لماهيات ، فالمفاهيم ليست جاهزة مسبقا ، بل يجب إبداعها في الفلسفة كما هو الحال في الفن و العلم.

---

[1] – جيل دولوز . فليكس غيتاري : ما هي الفلسفة ، مصدر سابق . ص .33.

[2] – سولرز فليب : جيل دولوز ، ترجمة عبد العزيز بن عرفة ، مجلة كتابات معاصرة ، بيروت ، لبنان ،المجلد 8 ، العدد 29 ، ديسمبر ، جانفي 1996–1997، ص 77.

[3] – Gilles Deleuze : Deux régimes de fous, Op.cit. P 338.

[4] – صفدي مطاع : الفلسفة إبداع المفاهيم ، تصدير الترجمة العربية لكتاب ما هي الفلسفة، مصدر سابق ، ص .07.